

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات

الأستاذ الدكتور محمد بوبدان

مدير مخر الدراسات المقدية ومقارنة الأديان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية: قسنطينة

ملخص:

يحاول هذا البحث الغوص في أوليات الطائفة والطائفية ومفاهيمهما؛ بشكل متناغم مع مفاهيم العصبية والتعصب والعصبية؛ والغرض الوصول إلى فهم أعمق للطائفية المقيدة، والتي تُلقى بظلالها على معاش العالم المعاصر؛ وإنه وإن كان البحث ههنا في المجال الديني - عن الطوائف الدينية - إلا أن أمره لا ينحصر فيها؛ بل تشمل جميع ما يختلف فيه الناس؛ فتم الطائفية على أسس عرقية، وإثنية، وفكرية مذهبية، وقومية... الخ.

كما إن هذا البحث يدرس الطائفية والعصبية ليستنبط مفاهيمهما في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ من دون إلقاء بال إلى أية إكراهات واقعية أو فكرية دفاعية من أجل رفع التهمة عن الإسلام أنه دين إرهاب وتمزيق ودموية ونحوها من التهم، فميدان ذلك في مكان آخر؛ ولكن المنهج يقتضينا أن ننظر ما المعاني المتضمنة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ باعتبارهما الهدي الذي يرتسم من خلالهما الإسلام حقاً.

Abstract:

This research attempts to clarify the concepts of sects and sectarianism, in parallel with the study of the concepts of intolerance; and the goal is to achieve a deeper understanding of the hateful bigotry against the other and sectarianism, which characterizes our contemporary world, where there is a sectarianism based on race, ethnicity, intellectual, nationalism, etc, not the religious one only.

This research studies sectarianism and intolerance to determine their concepts in the Holy Quran and the Sunnah of the Prophet; We do not care about accusations against Islam, that Islam is the religion of terrorism, bloody and destructive religion, we do rather observing what are the meanings included in the Holy Quran and in the prophetic Sunnah as guidance which illustrates Islam in its true image.

مقدمة

يعدُّ الكلام عن الطائفة والطائفية قريباً للكلام عن العصبية والتعصب لتلازمهما إلى حدٍّ كبيرٍ؛ حيث لا يعدُّ مجرد انقسامٍ للكتل البشريّة ذات الخصائص المختلفة إثنيّاً وعرقياً ولغوياً ودينيّاً... الخ داعياً إلى التناحر من دون أن تتشعب تلك الطوائفُ بأسسٍ فكريّةٍ أو أيديولوجيّةٍ أو دينيّةٍ تحمل على العداء الهدّام، أو السعي إلى إفناء البشريّة أو بدرجةٍ أقلّ الطوائف الأخرى. فإنّ الذي يسوقها إلى هذه المسالك هو العصبيةُ السلبية، التي تُشبع الجماعة والطائفة، وتُرفدها بما تؤسّس عليه طائفيّتها بصورةٍ لا تدع فيها مجالاً لمنطقٍ أو عقلٍ أو إنسانيّةٍ؛ ساعيةً لبقاء أفرادها - المراد لهم التجانس - وإفناء الآخر؛ من دون إيمانٍ بمعايش لا بدّ من إصلاحها.

وإنّ المصطلحات الفكرية سُوِّقها مترامية الأطراف، وخاصّةً في عالَمنا المعاصر منذ عصر النهضة، وتشابك دلالاتها وتشاكسها كثيرٌ جدّاً، وتنوّع ببيئاتها نشأةً وتطوّراً واستعمالاً عمّق من مشكلاتٍ فكريّةٍ ودينيّةٍ؛ وكذا اجتماعيّةٍ ونفسيةٍ وسياسيةٍ وثقافيةٍ؛ بل وحضاريّةٍ؛ ويتبدّى ذلك كثيرًا في المصطلحات المعولمة ثقافيّاً حيث يكون غالباً بلد منشئها الغربُ؛ وحقلُ التداول الشرقُ؛ حيث تختلف الحمولات بين البيئتين اختلافاً بيّناً يؤدي غالباً إلى اختلافاتٍ لا تخفى.

ومرادي في هذا البحث أن أدرس الطائفية والعصبية من منطلقات البيئة التي أحيا بها، بظلالها الحضارية والثقافية؛ وأمسها الديني؛ وكذا في العروض إلى مشكلاتهما في واقعنا المعيش، في مختلف المستويات. إذ أحياناً يتيه الباحث في تركيب بحثه؛ حين يبحث في مصطلحٍ معاصرٍ أُشرب دلالاتٍ حادثة وفق خلفيّاتٍ من بيئةٍ معيّنة؛ ثم يأخذ المصطلح المقابل له في العربية، ليجث عن تأصيلٍ شرعيٍّ له، فيحملُ نصوص الوحي ما لا تحتل لِيُثبت شيئاً أو ينفيه. وإن كان ما سأبحثه هنا لا ينطبق فيه الكلام كثيرًا؛ إلّا أنّنا نجد مصداقه أكثر فيما يتعلّق مثلاً بالحرية، والحرية الدّينية تحديداً، وكذا الأمور المتعلقة بأنظمة الحكم أو الاقتصاد ونحوهما.

إذن فالذي سأقوم به هنا لا يعدو أن يكون محاولةً في تحديد مفاهيم الطائفية والتعصب توازياً؛ مع توضيح أهمِّ إشكالاتهما، والآثار المترتبة عنهما اقتراناً؛ وكيفية السلامة منهما سلباً.

1/ مفهوم الطائفة والطائفية

- أَوَّلًا: لغةً

لا يوجد بحسب اللسان ما يدلُّ على معانٍ مستقبحةٍ أو شنيعةٍ للطائفة؛ وإنَّما غايةُ ما تدلُّ عليه هو جماعةٌ مقارَبةُ العددِ من النَّاسِ؛ يبلِّغُهُم من المدح بقدر طبيعتهم وصنيعهم؛ مقابل ما يبلِّغُهُم من الذمِّ والسوء بخلالهم وفعالهم؛ فيما يحيل المصدر الصناعي: "طائفيّة" إلى التحيزِ إلى الطائفة؛ ذلك التحيزُ يتبع كسابقِ البيان طبيعةً ذلك التحيزُ بحقٍّ كان أم بباطلٍ.

قال أحمد بن فارس: الطاءُ والواو والفاء أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على دوران الشيء على الشيء؛ وأن يُحفَّ به، ثمَّ يُحمَلُ عليه... فأما الطائفةُ من النَّاسِ فكأنَّها جماعةٌ تُطيفُ بالواحدِ أو بالشيء؛ ولا تكادُ العربُ تحدُّها بعددٍ معلومٍ... ثمَّ يتوسعون في ذلك من طريق المجازِ فيقولون: أخذتُ طائفةً من الثوبِ، أي قطعةً منه... لأنَّ الطائفةَ من النَّاسِ كالفرقةِ والقطعةِ منهم.¹ وإنَّ الطائفةَ من النَّاسِ بحسب أصل المعنى: "دوران الشيء على الشيء" فيها تضمينُ التقويِّ في مقابل الانفراد الذي يوحي بالضعف، والله أعلم.

وثمةُ ألفاظٌ كثيرةٌ في اللسان العربي تدلُّ على جماعة الناس؛ عدَّ منها الرُّماني قولهم: جماعةٌ وجزقٌ وفرقةٌ وطائفةٌ وشرذمةٌ وعُصبةٌ ورهطٌ وفئامٌ وأحزابٌ وكردوسٌ وخيلاءٌ وعرجٌ وبعرٌ وصرمٌ وزرافات، وثلَّةٌ وزمرةٌ وكتيبةٌ وفيلقٌ وخميسٌ وجيشٌ وعسكرٌ.² وهي -كما ترى- بحسب الشيء الذي بُعِضت أجزاؤه.

- ثانيًا: اصطلاحًا

1- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: المقاييس في اللغة، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو؛ دار الفكر: بيروت- لبنان، ص 628.

2- أبو الحسن علي بن عيسى الرُّماني: الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى، تحقيق فتح الله صالح علي المصري، ط1، دار الوفاء: المنصورة- مصر، 1987م، ص 65.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمّد بودبان

الطائفة في اصطلاح الشرع لا تبعد عن المعنى اللغوي: يقال للواحد فما فوقه أخذاً، من قوله تعالى: «فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»؛ وقيل أقلُّه ثلاثة.¹ فالأمر ههنا كسابقه في أصل اللسان، هو نفسه في المعنى الاصطلاحي؛ فهو ابتداء لا يتضمّن معنىً سلبياً؛ ولذلك كان التوجّه إلى إشراب ذلك في مصطلح الطائفية؛ والمعنى المُشربُ هو المأخوذ من القلّة والضعف اللذين يحدثان بمفارقة الكلّ وإبطال الاجتماع. وعلى ذلك حدثت ارتباطات استعمالية وظيفية أشرّبت المصطلح دلالة ثانوية، وخصّصته بالناحية السلبية.

يتحدّث "سماء سليمان" عن إشكال المصطلح - وإن كنت لا أرى إشكالاً في الأصل - قائلاً: "ولعلّ مفهوم "الطائفية" واحدٌ من المفاهيم التي شهدت نوعاً من الخط المفاهيمي والتداخل في المعاني والاصطلاحات والذي ازداد به غموضاً، ثم تلامس الغموض غموضاً مع متأزمة فكريا وسياسيا، وثقافيا فيخلص إلى إشكالية "الطائفية" كتعبير عن حالة أزمة تعيشها المجتمعات العربية والإسلامية، حيث يستخدم البعض شعار "الطائفية" من أجل تعبئة جزء من الجمهور السياسي ورائه، بل وأصبح من الدارج استخدامُهُ كتهمة "الطائفية" لتشويه سمعة الخصم أو الإساءة إلى قضيته، وكثيرا ما طرح في مواجهة القومية أو بالأحرى الوطنية، أو كبدل عنها، وهناك من يربط بين "الطائفية" بوصفها النقيض للوطنية وبين التآمر الأجنبي على المصير والمستقبل العربي؛ وهناك من ينظر إليها من زاوية التباين بين قيم العلمانية والقيم الدينية".² والأمر كما نرى هو ليس إشكالاً في المفهوم وصعوبة تحديده - سواء في اللسان العربي أو غيره-؛ وإنّما المقصود استثمارُ المسألة الطائفية في حقول السياسة ولولاحقها.

1- ابن حجر العسقلاني: تفسير غريب الحديث، دار المعرفة: بيروت- لبنان، ص156.

2- مفهوم الأقلية، مجلة الوعي، العدد 522، السنة العشرون، شوال 1426هـ، تشرين الثاني 2005م. نقلًا عن: سماء سليمان: الطائفية: المفهوم وإشكالاته ومخاطره، شؤون خليجية. ع. 47 (أيلول 2006)، ص ص. 61-68، ص8.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمد بودبان

وعلى ذلك نخلص إلى معنى وظيفي للطائفية مجاله وقائع الحياة السياسية المعاصرة في مختلف تشعباتها؛ يقول "عبد الإله بلقزيز": "الطائفية ابتداءً: بنية شعورية- اعتقادية لدى جماعة من المنتسبين إلى ملّة ما؛ المعتنقين لتعاليمها العامّة، ممّن يتحدّر لهم اعتقاداً، أو يتكوّن، بكيانية اعتقاديّة خاصّة ومتميّزة من الجماعات الأخرى التي تشاركها الانتماء الديني. وهي بهذا المعنى تمثّل انشقاقاً ثقافياً- عقدياً داخل إطار الجماعة الدينيّة الكبرى؛ غالباً ما تبرّه بزعم أنّها الجماعة الأشدّ تمثيلاً؛ التمثيل الأمين للذين الذي تعتقه. وهي بمعنى ثانٍ: بنية ذهنيّة عصبويّة؛ لأنّ مبناها على فكرة أنّ الطائفية هي ابتداءً رابطة روحية تولّد تضامناً، أو علاقات تضامنية بين من ينتسبون إليها".¹

ويواصل قائلاً: أمّا المذهبيّة فليست إلّا الصورة، والبنية المصغّرة للطائفية؛ والوليد غير الشرعي لها؛ إنّها انشقاق داخل الانشقاق؛ وتدرّج داخل بنية متدرّجة أصلاً. فهي تتولّد من الذهاب بعيداً في البحث عن عوامل التمايز؛ وعن الفواصل الدقيقة التي تفصل وت عزل سعياً وراء ماهيات أكثر صفاء ونقاء.²

وإذا كانت المذهبيّة في ناحيتها السلبية مضمّنة في الحقل الدلالي المعاصر للطائفية؛ فثمّة مصطلح آخر أكثر شهرة في الحقل ذاته، وهو: "الأصوليّة". ويرى يوسف بيكر *Baker, Joseph* أنّه في حالات عدّة: يمكن المرادفة بين الأصولية والطائفية.³ وهو يراها مثلها مثل الطائفية؛ نشأت من المسيحية البروتستانتية؛ ولكن بقابلية تطبيقية أوسع.⁴

1- أحمد شوقي بنوب، سليمان تقي الدين، وآخرون: الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية - من الفتنة إلى دولة القانون-؛ تحرير وتقديم عبد الإله بلقزيز؛ ط1، مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت- لبنان، 2013م، ص9. (والكلام من المقدّمة بقلم عبد الإله بلقزيز).

2- المرجع نفسه، ص10. (والكلام من المقدّمة بقلم عبد الإله بلقزيز).

3- Baker, Joseph O. 2018. "Christian Sectarianism, Fundamentalism, and Extremism." Pp. 187-198 in *Routledge Handbook of Deviance*, edited by Stephen Brown and Ophir Sefiha. New York: Routledge.

4- Ibid.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمّد بودبان

ويقول "إميل أمين": لكن نرى في الاستعمال الحديث لمصطلح "أصولي" أنه استُخدم أولاً في الغرب، على خلفية "الأصولية المسيحية"؛ للتعريف بتيارات الصوحة الإسلامية والإصلاح الديني؛ ولبعض الحركات الإسلامية بعد أن أُصق "الإرهاب" بها عشوائياً، فتشوّه بذلك المصطلح، وتحوّل عن معناه الإيجابي نحو دلالاتٍ سلبية¹.

وفي مسيرة انبثاق الحوار العالمي بين الأديان، مثّلت الأصولية أحد التطوّرات العميقة في الدين المعاصر؛ أسماها "روبرت ووثناو" Robert Wuthnow واحدةً من أهمّ العناصر المعرّفة للفيسفساء الدينية في زماننا؛ وقَرّر آخرون بأنّ الأصوليّة هي الظاهرة الدينيّة للقرن العشرين. وإنّه في حاضرنّا تشغل الأصولية كقوّة محرّلة في كلّ أجزاء أكثر الأعراف العالمية؛ ويمكن القول بأنّها ستكون من بين أهمّ الحركات الدينيّة في القرن الحادي والعشرين².

2/ مفهوم التعصّب

– أوّلاً: لغةً

العين والصادُ والباء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على ربط شيءٍ بشيءٍ – مستطيلاً أو مستديراً – ثمّ يفرّع ذلك فروعاً... ومن الباب: العصبَةُ، قال الخليل: هم من الرجال عشرة؛ ولا يقال لما دون ذلك عُصبَةٌ؛ وإنّما سمّيت عصبَةً لأنّها قد عُصبت؛ أي كأنّها رُبط بعضها ببعض، إذ: إغصُوصَبَ القومُ: اجتمعوا، واليومُ: اشتدّ. والعُصبَةُ والعصابة من النَّاس والطير والخيّل. وفلانٌ لا تُعصَّبُ سَلَمَاتُهُ: أي لا يقهرُ؛ والعصبيَّةُ والتعصُّبُ: المحاماةُ والمدافعةُ؛

1- إميل أمين: الأديان والأصوليات: في جذور المفاهيم وتحديات الواقع الأليم؛ التفاهم. ع. 47 (2015)، ص ص. 1-25، 25ص.

2 - Peter A. Huff : *The Challenge of Fundamentalism for Interreligious Dialogue* ; CrossCurrents, Vol. 50, No. 1/2, The Wisdom of the Heart and the Life of the Mind: Fiftieth Anniversary Issue (Spring/ Summer 2000), pp. 94-102. He referred Successivment to: Robert Wuthnow, *Christianity in the Twenty-first Century* (New York: Oxford University Press, 1993), 109. And Jerry Falwell, ed., *The Fundamentalist Phenomenon: The Resurgence of Conservative Christianity* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1981), 1.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمّد بودبان
والعصبيّ من يُعين قومه على الظلم، والذي يغضبُ لعصبته ويحمي عنهم. والعصبية: الأقارب
من جهة الأب؛ لأنّهم يُعصبونه، ويغتصب بهم، أي يحبطون به، ويشتدّ بهم¹.
وثمة مفردات ذات علاقة بالعصبية من نحو: العنصرية، التحيز، الميل، الحمية،
النصرة، الغلو، التمييز... الخ.

- ثانيًا: العصبية اصطلاحًا

يُقصد بالكلام هنا أن نستوضح طبيعة التعصّب والعصبية في النّفس وفي الاجتماع؛
للنظر في ارتباطاتهما بالفطرة والخلق والخلق بعد ذلك. والتعصّب في الاصطلاح: "قيامٌ
بالعصبية؛ والعصبية من المصادر النّسبية، نسبةً إلى العصب؛ وهم قوم الرجل الذين يعزّزون
قوّته، ويدفعون عنه الضيم والعداء"². وهو واضح العلاقة بالأصل اللغوي ولا يبعدُ عنه.

والجانب المذموم من العصبية صارت له محدّدات في الاستخدام الوظيفي في الحقول
السياسية والاجتماعية والفسائية والدينية ونحوها -والسياسية أهمّها-؛ عرّفها "Bob de
Graff" بقوله: "هي المساهمة في السعي لتحقيق ما يعتقد عالمًا أفضل - قل يوتوبيا إن
شئت- من طريق العنف"³.

والتعاريف التي تحاول تحديد التعصّب متقاربة جدًّا؛ منها:

-
- 1- ابن فارس ص 781-782. ومجد الدّين أبو السعادات المبارك بن محمّد الشّيباني الجزري ابن الأثير:
النهاية في غريب الحديث والأثر، ت محمّد أبو فضيل عاشور، (ط1)، دار إحياء التراث العربي: بيروت-
لبنان، 2001، ص 619. ومجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب
العزيز؛ ت محمّد علي النّجار، (دط)، المكتبة العلميّة: بيروت-لبنان، (70/4).
 - 2- مجموعة من المؤلّفين: أضواء على التعصّب، (ط1)، دار أمواج: بيروت-لبنان، 1993م، ص 28. والكلام
من مقال بعنوان: "التعصّب" صدر في العدد السادس من جريدة "العروة الوثقى" عام 1884م من إنشاء جمال
الدّين الأفغاني ومحمّد عبده.

3 - Bob de Graff: *History of Fanaticism –from Enlightenment to Jihad-*; Center for
studies in Islamism and Radicalisation (CIR), Department of political science, Aarhus
University, Denmark, May 2010, p3.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمد بودبان

1/ عُرِفَ التعصّب بأنّه: عدم قبول الحقّ عند ظهور الدليل بناءً على ميلٍ إلى جانبٍ.¹

وقال أديب إسحاق: وحّد التعصّب عند أهل الحكمة العصريّة غلُوّ المرء في اعتقاد الصّحة بما يراه؛ وإغراقه في استنكار ما يكون على ضدّ ذلك الرأى؛ حتّى يحمله الإغراق والغلُوّ على اقتياد النَّاسِ لرأيه بقرّة؛ ومنعهم من إظهار ما يعتقدون، ذهاباً مع الهوى في ادّعاء الكمال لنفسه، وإثبات النقص لمخالفه من سائر الخلق.²

2/ يحدّده جوردون مارشال في موسوعة علم الاجتماع في الاستعمال العادي أنّه يعني:

الرأى المسبق؛ أو التحيز ضدّ، أو مع شخصٍ معيّن، أو شيءٍ معيّن. قال: ومع أنّه من المهم أن نتذكر أنّ الأفكار والآراء المتحيّزة يمكن أن تكون إيجابيّة، كما يمكن أن تكون سلبيّة، إلّا أنّنا نلاحظ مع ذلك أنّ المصطلح يشير في الغالب الأعمّ إلى اتّجاهٍ سلبيّ، أو غير إيجابيّ، اتّجاه جماعة، أو اتّجاه أفراد جماعةٍ معيّنة. ويُسَمّ التعصّب بالمعتقدات المتأثّرة بالصور النمطيّة التي لم تُختبر على محك الواقع، وإنّما تستند إلى مشاعر الشخص، واتّجاهاته.³

3/ ونحوها منه ما ورد في قاموس مصطلحات علم الاجتماع بأنّه يعنى به:

- حماسةٌ مستمرّة، ضيقّة، انفعاليّة، مخلصّة لسببٍ يعتقد أنّه هامٌّ للغاية، بحيث يبرّر أيّ وسائل.

- غلوٌّ في التعلّق بشخصٍ، أو فكرةٍ، أو مبدأٍ، أو عقيدةٍ؛ بحيث لا يدع مكاناً للتسامح؛ وقد يؤدّي إلى العنف والاستماتة.

1- محمد علي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ت علي دحروج، ترجمة فارسية: عبد الله الخالدي، ترجمة أجنبية جورج زيناتي، إشراف ومراجعة: رفيق العجم؛ (ط1)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، 1996م، (485/1).

2- مجموعة من المؤلفين: أضواء على التعصّب، (ط1)، دار أمواج: بيروت- لبنان، 1993م، ص13. والكلام لأديب إسحاق في خطبته: "التعصّب والتساهل".

3- جوردون مارشال: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وجماعة، (ط2)، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة: القاهرة- مصر، 2007م (382/1-383).

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمد بودبان

- ضرب من الحماس الشديد الذي يدعو إلى الغلو، والتمسك برأي، أو موقف معين، وله مظاهره المختلفة، وأوضحها يكون في المواقف الوطنية، والآراء الدينية¹.

كما تميل تعريفات علم الاجتماع للتعصب إلى اشتراط أن يمثل التعصب اعتداءً على أحد المعايير الاجتماعية كالرُشد، أو العدالة، أو التسامح.²

3/ الطائفية والتعصب من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

أولاً: من خلال القرآن الكريم

في القرآن الكريم الحقل الدلالي لمفردة: "طائفة" يدور حول دلالة الجزء من غير العاقلين: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ؛ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ؛ أو العاقلين - وهو الأغلب -: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ، وبحمولات محمودة حيناً، ومذمومة أخرى؛ بحسب الجزء المنفصل عن الكل: نحو قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ؛ وقوله عز من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

كما جاءت في الحقل الدلالي نفسه مفردة: "فئة": نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلاَقُوا اللَّهَ كَمْ مِنَ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ؛ وكذا مفردة: "عصبة"، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ

1- مصلح الصالح: الشامل، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، (ط1)، دار عالم الكتب: الرياض- المملكة العربية السعودية، 1999م، ص213.

2- جوردون مارشال: مرجع سابق، (1/383).

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمد بودبان

لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ؛ ومفردة: "فريق" كقول المولى عز وجل: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ؛ وكذا مفردة: "شعبة"، قال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ؛ ومفردة: "فوج"، قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ انْغِيَاطٍ كُلِّمَا آُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ؛ ومفردة: "نفر" في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوجِبِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْنَجْرِ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ؛ ومفردة: "حزب" في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ؛ ومفردة: "ثُلَّة"، قال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ؛ ومفردة: "رهط"، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾

إنَّ الآيات القرآنيَّة التي تواجه التعصُّب المذموم، وكذا العصبي، كانت مرتكزة بشدَّة في القرآن المكي؛ ومقرونة بالشَّرك - جلبه وخفيه - والاتباع العاري عن بينات الصحة، والحجَّة، وصدق الأدلَّة، ومسالك الاستدلال والدلالة. ولذلك لمَّا ورد في الفترة المدنيَّة ما يُضادُّ هذا التعليم الربَّاني الذي اقتلع جذور التعصُّب والعصبية، استنكر النبي صلي الله عليه وسلَّم ذلك أشدَّ الاستنكار.

وخصال الجاهليَّة التي وُجِّهت في بداية الدعوة الإسلاميَّة لم تكن الشَّرك وحده - وإن كان أشنعها وأشدَّها - وإنَّما ثمة عوائد اجتماعيَّة، وسلوكات تُضادُّ بناء المجتمع الصحيح السليم؛ من نحو: وأد البنات، وأكل الثَّراث ومنع الصَّعقة منه والنِّساء؛ ونحوها من الخلال التي يضطرب بهنَّ الاجتماع الإنساني.

ثانيًا: من خلال الأحاديث النبوية

بداية مع مصطلح الطائفية، ومعنى الطائفية إنَّما نجده من خلال مصطلح "الفرقة" لا "الطائفة"؛ وحديث افتراق الأمَّة الأشهر في ذلك؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمد بودبان

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة؛ وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة؛ وتفرقت أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة»¹.

والمعنى المتشكّل المذموم هو الانفصال عن الجماعة بمخالفة معتبرة، والسيطرة إلى هدم البناء الجامع، وذهاب الرّيح، ونحو ذلك؛ فعن أبي هريرة مرفوعاً: «من خرج من الطاعة؛ وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهليّة؛ ومن قاتل تحت رايةٍ عُميّةٍ يغضبُ لِعَصْبَةٍ، أو يدعو إلى عَصْبَةٍ؛ أو ينصرُ عَصْبَةً فقتل، فقتله جاهليّة. ومن خرج على أمّتي، يضرِبُ برّها وفاجرّها؛ ولا يتحاشى من مؤمنّها؛ ولا يفي لذي عهدٍ عهده؛ فليس مِنّي، ولست منه»². والأثر جمع الكلام بين الفرقة والعصبية.

واستخدم لفظ: "فئة" وعادةً مقروناً بالبغي؛ ومنه حديث أبو سعيد الخدري: «أخبرني من هو خيرٌ مِنّي، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لعمار، حين جعل يحفرُ الخندق، وجعل يمسحُ رأسه ويقول: "يُؤس ابنِ سُميّة، تقتلك فئةٌ باغيّة"»³. ومنه حديث عبد الله بن عمر: «كنث في سريةٍ في سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فحاص الناسُ حيصّة؛ وكنتُ فيمن حاص؛ فقلنا كيف نصنعُ وقد فررنا من الرّحف، وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبئنا؛ ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإن كانت له توبة، وإلا ذهبنا فأتيناه قبل صلاة الغداة؛ فخرج فقال: من القوم؟ قال فقلنا نحن الفرّارون. قال: بل أنتم العكّارون؛ أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين؛ قال: فأتيناه حتّى قبلنا يده»⁴.

1- أخرجه أبو داود (وغيره): أوّل كتاب السنة، باب شرح السنة، ح 4596، ص 830؛ وحكم عليه الألباني بأنّه: حسنٌ صحيحٌ.

2- مسلم: الإمارة، باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق، ح 4763، ص 882.

3- مسلم: الفتن وأشراف الساعة، باب لا تقوم الساعة حتّى يمرّ الرجل بقبر الرجل، فيتمنّى أن يكون مكان الميت من البلاء، ح 7249، ص 1310.

4- أحمد (203/7)، وصحّح الشيخ أحمد شاكر إسناده.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمّد بودبان

وأما العصبية، قد وردت فيها التّصووص مذمومة وممتدّحة، فمثال الأولى: عن بنت واثلة بن الأسقع أنّها سمعت أباها يقول: قلت يا رسول الله: ما العصبية؟ قال: « أن تعين قومك على الظلم»¹.

ومثال الأخرى: عن عبّاد بن كثير الشّاميّ، عن امرأةٍ منهم يُقال لها فسئِلةُ قالت: سمعتُ أبي يقول: سألتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقلت: يا رسول الله: أَمِنَ العصبيةُ أن يُحبَّ الرَّجُلُ قومَهُ؟ قال: « لا؛ ولكن من العصبية أن يُعين الرَّجُلُ قومَهُ على الظلم»².

وحَدَّث أبو هريرة - كما ذكرناه آنفاً- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: « من قاتل تحت رايةٍ عميّةٍ، يدعوا إلى عصبيةٍ، أو يغضب لعصبيةٍ، فَقَتَلَهُ جاهليّةٌ»³.

ومن توابع دلالة العصبية المذمومة: الحمية والغضب لغير الله، فعن أبي موسى قال: جاء رجلٌ إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا رسول الله: ما القتال في سبيل الله؟ فإنّ أحدنا يُقاتل غَضَبًا، ويُقاتل حميةً... فقال: « من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا، فهو في سبيل الله عزّ وجلّ»⁴.

ومعيارُ العصبية غير المذمومة هو الانحياز للحقّ وحدّه؛ فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: « أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»؛ قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «تأخذ فوق يديه»⁵. ومعنى أن تأخذ فوق يديه: « تحجّزه، أو تمنعه من الظلم؛ فإنّ ذلك نصره»⁶.

1- أبو داود: الأدب، باب في العصبية، ح5119، ص926، وضعّف إسناده الألباني.

2- ابن ماجه: الفتن، باب العصبية، ح3949، ص651، وضعّف إسناده الألباني.

3- ابن ماجه: الفتن، باب العصبية، ح3948، ص651، وصحّح إسناده الألباني.

4- البخاري: فضل العلم، باب من سأل وهو قائمٌ عالمًا جالسًا، ح123، ص42.

5- البخاري: المظالم، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، ح2444، ص505.

6- البخاري: الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنّه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه، ح6952، ص1395.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمد بودبان

وورد وصف العصبية بالجاهلية وبالإنتان؛ قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ؛ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ. فَسَمِعَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « مَا هَذَا؟ ». فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ »¹. وفي روايةٍ عند أحمد: « ثُمَّ قَالَ: أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ »².

وبالمقابل جاءت التربية والتحلية بالانحياز وإِتِّخَاذُ الْعَصَبَةِ بِالْإِسْلَامِ وَالْحَقِّ، قَالَ مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: وَسَلَمَانُ الْفَارِسِيُّ يُكْنَى "أَبَا عَبْدِ اللَّهِ" وَلَاؤُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « سَلَمَانٌ مَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ »³.

وعن أَبِي نَضْرَةَ، حَدَّثَنِي مِنْ سَمْعِ خُطْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبِّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ؛ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى؛ أَلَبَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »⁴.

1- البخاري: تفسير القرآن، باب قوله: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ» والله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون»، ح4904، ص1040-1041.

2- في مسند جابر بن عبد الله الأنصاري، ح14566، (14566/11)، وفي الهامش: إسناده صحيح.

3- المستدرک علی الصحیحین: معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه؛ ح6539، (592/3).

4- أحمد: حديث رجلٍ من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ح23381، (12/17)، وفي الهامش: إسناده صحيح.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمد بودبان

وعن الحارث الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جئنا جهنم »؛ فقال رجل: يا رسول الله: وإن صلى وصام؟ قال: « وإن صلى وصام؛ فادعوا بدعوى الله الذي سماكم: "المسلمين المؤمنين" عباده الله »¹.

4/ واقع التعصب والطائفية ومآلاتهما

أ/ التعصب والطائفية منقسمان:

بمعنى: بما أنهما من سمات الاجتماع والعمران البشري فهما ينقسمان إلى مذموم وممدوح؛ والمعيار في ذلك بحسب إيماننا الإسلامي هو اتباع الحق سبحانه وتعالى أو الانزياح إلى غير الله تعالى - فالمرء أمّة وحده إذا كان على الحق- والتعصب - وفق الدلالة اللغوية الأصلية- يكون ممدوحًا إذا كان للحق ولأجله؛ ولطالما أعجبني حال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى حين قال: ولكنني رجلٌ أتعصب لديني، ولغتي أشدّ العصبية؛ وأعرف معنى العصبية وحدها. وأن ليس معناها الغدوان؛ وأن ليس في الخروج عنها إلاّ الذلّ والاستسلام. وإنّما معناها الاحتفاظ بمآثرنا ومفاخرنا؛ وحُوطُها والدّوْذ عنها؛ وإنّما معناها أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. وأعرف أنّه ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلاّ ذلّوا. وقد والله غزينا في عقر دارنا، وفي نفوسنا، وفي عقائدنا، وفي كلّ ما يقدّسه الإسلام، ويفخر به به المسلمون.²

1- الترمذي (في حديث طويل): الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلّة والصيام والصدقة، ح 2863، ص 640-641. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب؛ قال: محمد بن إسماعيل الحارث الأشعري له صحبة، وله غير هذا الحديث؛ حدّثنا محمد بن بشر، حدّثنا داود الطيالسي، حدّثنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن أبي سلام، عن الحارث الأشعري، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه بمعناه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب؛ وأبو سلام الحبشي اسمه "مطوّر"؛ وقد رواه علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير.

2- أحمد محمد شاكر: تصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة، وكيفية ضبط الكتاب، وسبق المسلمين الإفرنج في ذلك، عناية عبد الفتاح أبو غدة، (ط1)، مكتبة المطبوعات الإسلامية: بيروت- لبنان؛ مكتبة السنة: القاهرة- مصر، 1415هـ، ص 13.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمّد بودبان

وإنّه من الفطرة الشعور بالانتماء - أيّا يكن - ونماؤه اجتماعيًا ونفسيًا وسياسيًا سيحدّد مساراته؛ واختلاف المعتقدات والمذاهب ومدارس الأفكار والفلسفات - وهو سنّة في الخلق - يجعل الانشقاقات شيئًا ملازمًا لها؛ وإذا كانت الطوائف الدّينية خُصّت بالاهتمام فلا يعني ذلك أنّها بدعٌ في ذلك؛ وإنّما فيه الدليل على آثارٍ ونتائج لها، تتقاطع مع مساراتٍ أخرى، تجعلها ذات أهميّة في التوظيف، وفي وضع معادلات السياسات، وتدبير الصّراع؛ أو قل حقيقة التدافع ومصادقه.

الطائفة والعصبية ليستا بدعًا في الاجتماع البشري؛ لا يمكن بحالٍ محاربتهما كدخيلين؛ ولكن تهذيبهما لنلّا تتحول الطائفة إلى طائفة مقيّنة؛ ولنلّا تلغي العصبية العقل وجمال الروح وتعبث بالأخلاق؛ والحقّ فوق ذلك كلّه - ولا بدّ - حاكمًا بالذمّ وبالمدح لا سواه.

ب/ تعدّد الدافعية للطائفية والتعصب:

إنّ العصبية سببٌ لنشوء الطوائف ثمّ تعدّدها وتنوّعها؛ ثمّ نشوء الطائفية كخطابٍ متميّز، له آثاره في مكوّنات الحضارة والثقافة والاجتماع والنفس الإنسانيتين؛ وتفاعل تلك المكوّنات وفق آليات التدافع أو الصراع في ميادين السياسة بخاصّة.

تخصيص الطائفية بالدين لا يذمّ؛ فالاصطلاحية في الأساس لا يُدّم تخصيصها؛ والتحديدات الإجرائية في الكتابة والبحث فيها سعة لا تُضيق؛ إنّما المعيّب أن تُنسب الدافعية في خطابات الطائفية أو التعصبات المختلفة إلى طبيعة الدين وخصائصه؛ هنا يصير التّخصيص تحيزًا ضدّ الدين برسم الأيديولوجيا.

فبالإضافة إلى ما بيّناه آنفًا من جذور المسألة الضاربة في الفطرة؛ فإنّ الطائفية المقيّنة استتارة لمعالم الانتماء للطائفة؛ تُنشئ لها خطابًا لا يكون دومًا نابعًا من خصائص الدين أو خصائص مكوّناته؛ بل السلطان المحرّك - وأحيانًا المنشئ لها - هو السياسي، والاقتصادي ونحوهما من نُظم العمران التي أساسها تحقيق المنفعة والمصلحة بالأساس. تكاثر الدوافع، تهيجها بعضها ببعض، تحالف بعضها مع بعض، كلّ ذلك عند الدرس يوضح تعدّدها، ويصعب من حلّ إشكالاتها، ويعقّد من تتبّع سيرورتها؛ وهو المطلوب في بحث الموضوع.

ج/ المجال السياسي للطائفية:

الطائفية - في زماننا بخاصة- تكاد تكون الممارسة السياسية للطائفة؛ ويكون ذلك محصلة العلاقات التي تحياها الطائفة اجتماعيًا واقتصاديًا ودينيًا ولغويًا؛ كرّر فعل في الغالب، بسبب الحاضر، وبسبب الماضي التاريخي.

يقول عبد الإله بلقزيز: على أنّ الطائفية مؤسسة أيضًا - وليست بنية ذهنية فحسب- إذ الطائفة تميل على الأغلب إلى مأسسة أنشطتها وعلاقاتها كافة: من الأحوال الشخصية إلى التمثيل السياسي، مرورًا بالنشاطات التربوية والاقتصادية، وبالحيات الروحية...¹ ثم قال: وكما هي تكون بنية اعتقادية مغلقة على نفسها، كذلك تكون بنية مؤسسية مغلقة. وكما يقودها انغلاقها الفكري والنفسي إلى رفض الآخر ومفاصلته؛ كذلك يقودها انغلاقها السياسي إلى عدم الاعتراف لغيرها بمصالحه؛ وإلى تقديم مصلحتها العصبوية على المصلحة العامة.²

د/ المجال الاجتماعي للعصب والطائفية:

والمجال الاجتماعي سابق على المجال السياسي الذي هو نتيجته؛ والعصبية -بشقيها- يمكن القول بأنها فطرّة الاجتماع الإنساني، ويتحدّث ابن خلدون عن دفع العدوان في غير المدن والأمصار فيقول: وأمّا أحياء البدو، فيزغ بعضهم عن بعض مشائخهم وكبرائهم بما وفرّ في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة؛ وأمّا جُلّهم فإنّما يذود عنها من خارج حامية الحيّ من أنجدهم وفتيائهم المعروفون بالشجاعة فيهم. ولا يصدّق دفاعهم وزيادهم إلّا إذا كانوا عصبيةً، وأهل نسبٍ واحدٍ؛ لأنّهم بذلك تشتدّ شوكتهم، ويخشى جانبهم؛ إذ نعرته كلّ أحدٍ على نسبه وعصبيةً أهمّ.³

1- أحمد شوقي بنيوب، مرجع سابق، ص10. (والكلام من المقدمة بقلم عبد الإله بلقزيز).

2- المرجع نفسه.

3- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار؛ دار الفكر - بيروت - لبنان، 2001م، ص159.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمّد بودبان

ثمّ بيّن ابن خلدون فطرية العصبية في المستويين النفسي والاجتماعي؛ وكيف تخدمان طائفة المرء الذي ينتمي إليها؛ قال: وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والتعطف على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية؛ وبها يكون التعاضد، والتناصر؛ وتعظم رهبة العدو لهم... وأما المتفردون في أنسابهم، فقل أن تصيب أحدا منهم نعمة على صاحبه؛ فإذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب، تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل؛ فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى القفر، لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلتهمهم من الأمم سواهم. وإذا تبين ذلك في السكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية؛ فبمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة، أو إقامة ملك، أو دعوة؛ إذ بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه؛ لما في طبائع البشر من الاستعصاء؛ ولا بد في القتال من العصبية¹.

هـ/ المجال النفسي للتعصب والطائفية:

إذا قلنا إن العصبية للطائفة جذورها نفسية واجتماعية، وهي من السنن الماضية في الاجتماع الإنساني؛ فإن الخبرة تحفظ عليهما فطريتهما؛ وإرادة السوء فيهما تتحكم فيه عوامل عدة، منشؤها الأول نفسي، يعتضد اجتماعيا؛ ومن أهم منشآت العصبية والطائفية المقيته عدم التحكم في القوة الغضبية؛ يقول الجاحظ: وهذه النفس -يعني الغضبية- أقوى من النفس الشهوانية، وأضرر لصاحبها إذا ملكته وانقاد لها. فإن الإنسان إذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه، وظهر خرقة، واشتد حقه؛ وعُذِم حلمه ووقاره، وقويت جرائته. وتسرع عند الغضب إلى الانتقام، والإيقاع بمُغضبه، والوثوب بخصومه، فأسرف في العقوبة، وزاد في التشقي، فأكثر السب، وأفحش فيه².

1- المرجع نفسه، ص 159-160.

2- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: تهذيب الأخلاق، تعليق أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، (ط1)، دار الصحابة للتراث: طنطا- مصر، 1989م، ص 17.

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمّد بودبان

ويحدّثنا أندريه هاينال في: "سيكولوجيا التعصّب" بأنّ: التعصّب يمنح الأثبات المعرفي، وتوطيد النرجسيّة.¹ وهما كفيّان بسوق النعرات الطائفية والحركات التعصّبية الخالصة.

ثمّ يقول: الحركات التعصّبية الخالصة لا تضمّ سوى أناسٍ مجروحين نفسياً؛ ويسعون لفرض الإرهاب لأجل الإرهاب. لإرهاب الآخر، لجعله يعيش ما يعانونه هم أنفسهم؛ لكي يعاني ما عانوا منه؛ ولكي يشعروا على هذا النحو أنّهم قد فهموا.² وسيظهر ذلك في الممارستين: الاجتماعية والسياسية للطائفة بشكل واضح.

ويذهب زيجمونت باومان في كتابه: "التفكير على أساس سوسيولوجي" الصادر عام 1990م إلى أنّ التعصّب يؤدّي إلى ازدواج المعايير الأخلاقية؛ فما يستحقّه أعضاء الجماعة الداخلية بوصفه حقاً لهم، سوف يتحوّل إلى فعلٍ من أفعال الإحسان والرحمة، عندما يؤدّي اتّجاه أعضاء الجماعة الخارجية. ويستطرد زيجمونت قائلاً: "إنّ الأمر الأكثر أهميّةً من كلّ هذا أنّ الإساءة البالغة التي يرتكبها الفرد ضدّ أعضاء الجماعة الخارجية يبدو أنّها لا تتصادم مع ضميره الأخلاقي". ونفس الأفعال المتماثلة نجدها تتسمّى بأسماءٍ مختلفة، وتكون محلاً للتقدير والاحترام، أو الإدانة والاستهجان تبعاً للجانب الذي قام بها؛ ففعل التحرير الذي يمارسه شخص، قد يراه الآخر فعلاً من أفعال الإرهاب.³ وهذا كلّهُ من شأنه أن يعمّق من آثار الطائفية وإفرازاتها ويعقّد التعامل معها.

و/ مستقبل التعصّب والطائفية:

إذا قلنا إنّ العصبية والطائفة ليستا بدعاً في الاجتماع الإنساني؛ وأنّهما يتطوّران بشكلٍ مرّضيٍّ بحسب ما يطرأ عليهما من مؤثّراتٍ هنّ من محصّلات خصائص الحضارة والثقافة؛

1- أندريه هاينال، ميكولوس مولنار، جيرار دي بوميج: سيكولوجيا التعصّب، ترجمة خليل أحمد خليل، (ط1)،

دار الساقي: بيروت- لبنان، 1990م، ص43.

2- المرجع نفسه، ص44.

3- جوردون مارشال: مرجع سابق، (1/384).

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمّد بودبان

وما يقع عليها وفيها ومنها من سياساتٍ وتدابيرها؛ فلا يمكن الحديث عن القضاء عليهما؛ وإنما تدبير أمريهما؛ وفق التدافع الذي هو من سنن الحياة والعمران البشري.

وستبقى الطائفية التي يغذيها التعصّب الأعمى والحاقد من أقوى أدوات الصّراع، والمعارك الفكرية والمادية معاً، وسيبقى من يوظّفهما كذلك. أمّا تفاؤلاً ومسيراً في طريق العمل الذي نحن مخاطبون به - غير مسؤولين عن نتائجه- فلا بد أن لا نتوقف جهود ترشيد العصبية وحسن تدبير الشؤون الطائفية لما فيه الحق والخير، ابتداءً من التنشئة الأسرية، انتهاءً إلى فضّ النزاعات الطائفية بعدلٍ وفضلٍ.

خاتمة

أولاً: إنّ تتبّع مفهوم التعصّب من حيث نشأة اللفظة وتطورها الدلالي؛ وتفهُّم أسبابه النفسيّة المؤدية إلى مظاهره الاجتماعيّة؛ مع كشف علاقته بمفصّلات الدّين، وسلوك المتديّن - ونحوها من التشعّبات المختلفة- من شأنه أن يقفنا على ضوابط التعامل مع الذات ومع الآخر، في جميع المستويات العلميّة والفكرية والدّينيّة؛ ومن شأنه كذلك أن يرسم طرق الحوار - الداخلي والخارجي على السواء - بمراعاة الجوانب السلبية والإيجابية في مختلف مراحلها.

ثانياً: إنّ وجود الاستعدادات النفسيّة والاجتماعيّة المؤدية إلى مظاهر التعصّب؛ والمستجلبّة لآثارها - وغالبُ أمرها أنّها سلبيةٌ - لا يبرّر الوقوع في التعصّب المذموم؛ كما لا يمكنه أن يضيق من دائرة حرية النّاس في اعتناق الأفكار - والدّينيّة منها - أو يمنع من الاستماتة في الدّفاع عنها - ما دام صاحبها يرتئيهما صائبةً وصحيحةً صادقةً- وإنّما ذلك الدّفاعُ وتلك الاستماتة من شأنهما بيان الحجّة، وإثمار الحوار بتراجع الأطراف المخطئة عن تصوّراتها ومعتقداتها وسلوكاتها.

ثالثاً: إنّ من بين أسباب الوقوع في إغلاق سبل الحوار: وضمّ الآخر بالتعصّب لمجرّد تمسّكه بآرائه، أو بسبب ما يظهر منه من الالتزام الدّيني؛ وهذا سلوكٌ غير علميّ البتّة، وخاطي؛ حيث إنّ إدراكنا لمدى اقتناع الآخر بحججنا، وأدلتنا إنّما هو أمرٌ نسبيّ لخفاياه؛ وإن

الطائفية والعصبية: مفاهيم وإشكالات _____ أ.د- محمّد بودبان

كثّاً قد ندركه أحياناً من خلال شواهد حال الآخر، كتشغيبه في الاستدلال؛ أو استعماله الحيل التي يصرّح في مواضع أخرى ببطلانها، ونحوها من الشواهد.

رابعاً: الطائفية إنّما يظهر خطرُها حين تتشبع بالتعصّب؛ وتصادف من يحسن العزف على أوتارها دينياً وسياسياً؛ والسبيل إلى حلّ إشكالاتها هو القدرة على فكّ خيوط ارتباطاتها؛ وتدبير سياساتها بأخلاقيّة مهما قلّت نسبتها.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم (برواية حفص عن عاصم).
- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري: الجامع الصحيح، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، الدار الذهبيّة: القاهرة- مصر.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري: الصحيح، تحقيق خليل مأمون شيحا (ط1)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، 2005م.
- أبو عبد الله أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق أحمد شاكر/ حمزة أحمد الزين، دار الحديث: القاهرة- مصر، 1995م.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني: السنن، (مع تعليقات محمد ناصر الدين الألباني)، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (ط2)، مكتبة المعارف: الرياض- المملكة العربيّة السعوديّة، 2007م.
- أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحيحين (وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي)، دار الكتاب العربي: بيروت- لبنان.
- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني الشَّهير بابن ماجه: السنن، (مع تعليقات محمد ناصر الدين الألباني)، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (ط1)، مكتبة المعارف: الرياض- المملكة العربيّة السعوديّة.
- محمد بن عيسى بن سورة الترمذي: السنن، (مع تعليقات محمد ناصر الدين الألباني)، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (ط2)، مكتبة المعارف: الرياض- المملكة العربيّة السعوديّة، 2008م.
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: المقاييس في اللغة، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو؛ دار الفكر: بيروت- لبنان.
- أبو الحسن علي بن عيسى الرُّمَّاني: الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى، تحقيق فتح الله صالح علي المصري، ط1، دار الوفاء: المنصورة- مصر، 1987م.
- ابن حجر العسقلاني: تفسير غريب الحديث، دار المعرفة: بيروت- لبنان.

- مفهوم الأقلية، مجلة الوعي، العدد 522، السنة العشرون، شوال 1426هـ، تشرين الثاني 2005م. نقلا عن: سماء سليمان: الطائفية: المفهوم وإشكالاته ومخاطره، شؤون خليجية. ع. 47 (أيلول 2006)، ص ص. 61-68، ص8.
- أحمد شوقي بنيوب، سليمان تقي الدين، وآخرون: الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية - من الفتنة إلى دولة القانون-؛ تحرير وتقديم عبد الإله بلقزيز؛ ط1، مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت- لبنان، 2013م.
- إميل أمين: الأديان والأصوليات: في جذور المفاهيم وتحديات الواقع الأليم؛ النقاها. ع. 47 (2015)، ص ص. 1-25، ص25.
- مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ت محمد أبو فضيل عاشور، (ط1)، دار إحياء التراث العربي: بيروت- لبنان، 2001م.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز؛ ت محمد علي النجار، (دط)، المكتبة العلمية: بيروت-لبنان.
- مجموعة من المؤلفين: أضواء على التعصب، (ط1)، دار أمواج: بيروت- لبنان، 1993م.
- محمد علي التهناوي: كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، ت علي دحروج، ترجمة فارسية: عبد الله الخالدي، ترجمة أجنبية جورج زيناتي، إشراف ومراجعة: رفيق العجم؛ (ط1)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، 1996م.
- جوردون مارشال: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وجماعة، (ط2)، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة: القاهرة- مصر، 2007م.
- مصلاح الصالح: الشامل، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، (ط1)، دار عالم الكتب: الرياض- المملكة العربية السعودية، 1999م.

- أحمد محمّد شاكر : تصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة، وكيفية ضبط الكتاب، وسبق المسلمين الإفرنج في ذلك، عناية عبد الفتّاح أبو غدّة، (ط1)، مكتبة المطبوعات الإسلامية: بيروت- لبنان؛ مكتبة السنّة: القاهرة- مصر، 1415هـ.
- عبد الرّحمن بن خلدون: المقدّمة، تحقيق خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار؛ دار الفكر: بيروت- لبنان، 2001م.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: تهذيب الأخلاق، تعليق أبو حذيفة إبراهيم بن محمّد، (ط1)، دار الصحابة للتراث: طنطا- مصر، 1989م.
- أندرية هاينال، ميكولوس مولنار، جيرار دي بوميج: سيكولوجيا التعصّب، ترجمة خليل أحمد خليل، (ط1)، دار الساقى: بيروت- لبنان، 1990م.
- Peter A. Huff : *The Challenge of Fundamentalism for Interreligious Dialogue* ; CrossCurrents, Vol. 50, No. 1/2, The Wisdom of the Heart and the Life of the Mind: Fiftieth Anniversary Issue (Spring/ Summer 2000).
- Bob de Graff : *History of Fanaticism –from Enlightenment to Jihad-*; Center for studies in Islamism and Radicalisation (CIR), Department of political science, Aarhus University, Denmark, May 2010.
- *Routledge Handbook of Deviance*, edited by Stephen Brown and Ophir Sefiha. New York: Routledge.